الرافدين

مجلة فصلية مصورة تعنى بالآثار والتراث

العدد السابع – السنة الثانية 1990

الفوانيس

موسوعة فصلية مصورة تعنى بالاثار والتراث

صاحبها ورئيس تحريرها

محمد سعيد الطريحي

الكوفة
Kufa Academy

أكاديمية الكوفة

هولنده

Kufa Academy

فلسفة الفن الاسلامي
وعلاقته بالامام علي عليه السلام*

الدكتور المهندس محمد علي الشهرستاني
عميد الجامعة العالمية للعلوم الاسلامية
(لندن)

إن الهدف الغائي والأمنية الكبرى لأبناء البشر منذ أن خلقوا وإلى يوم هم باقون على سطح الكرة الأرضية هو الحفاظ على وجودهم والتمتع ببهجة الحياة .

وللوصول الى هذه الغاية والأمنية أودع الله في وجود الإنسان غريزتين هما الخوف والرجاء تسوقانه الى هذه الغاية المنشودة بصورة فطرية أو إرادية .

ومن هنا انطلق الإنسان ليلوذ بموجود قوي قادر يصونه من الهلاك ويسخر له طاقات الكون الكاملة لينال الخير والبهجة في الحياة فنرى بعضهم يؤمن بالله وآخرين يعبدون الشمس والقمر وكثيرين يعتبرون الأصنام والحجر والشجر آلهة لهم.

وبهذه الصورة تظهر مدرستان أساسيتان للعقيدة مدرسة الإلهي ومدرسة البشري .

مدرسة الإلهي تتمثل في رسالة الأنبياء والرسل نبي بعد نبي ورسول بعد رسول يحملون التعاليم الإلهية والشرائع السماوية من الله الواحد الأحد الى البشرية جمعاء . ولذا فإن جذور هذه الأديان والشرائع السماوية واحدة ، وان تصور البعض تعددها ، لأن القرآن يقول (هو الذي شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى ان أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) .

فما كانت تبلى احداها بسبب التحريف والتزييف حتى كانت تظهر الأخرى برسالة سماوية ناسخة ومجددة لسابقتها . وعلى هذا الأساس فإن العقيدة الصحيحة المقبولة من هذه الأديان والمذاهب هي العقيدة التي تثبت وتبرهن ارتباطها بمبدأ التشريع كالسلسلة حلقة بحلقة وعروة بعروة .

---

* محاضرة ألقيت بمناسبة افتتاح المعرض الفني الذي اقيم بمناسبة عيد الغدير وذلك في قاعات الكلية الملكية للفنون الجميلة جنب البرت هول ـ هايد بارك ـ لندن ـ ٢٢ ـ ٢٧ ذي الحجة ١٤١٠هـ .

أما مدرسة البشري فتبتدأ من الخرافة المتمثلة في عبادة الأصنام والأحجار والشجر والحيوان حتى ظهور دور العقل الذي طرحه الايونيون والفيثاغوريون بتركيزهم على الحسابات والرياضيات .

ويأتي غوغياس السوفسطائي لينقض كل شيء فيقول (لاشيء موجود ، او اذا وجد شيء ما فهو غير قابل للمعرفة ، أو اذا كان قابلا للمعرفة فهذه المعرفة غير قابلة للانتقال الى الغير) .

إلى أن تظهر المدارس الفلسفية الكبرى التي تبتدأ من سقراط ثم افلاطون الذي يعلن سلطان العقل ويبتدع مدرسة الاشراق ويركز على الحكومة والسياسة . ثم يخلفه ارسطو الذي يدعو الى مدرسة المشاء ويصنع ميزانا لمعرفة الواقع والحقيقة ويسميه بعلم المنطق ولذا يلقب بالمعلم الأول .

ويضع موت الاسكندر عام ٣٢٣ ق.م حداً لنهاية الازدهار اليوناني كما يقول بيردو كاسيه في كتابه الفلسفات الكبرى (بيد ان الفتح المقدوني وسيطرة روما ثم امتداد المسيحية وانتشارها . كل ذلك ساعد على انحطاط المثل الأعلى الوطني والعادات الفكرية اليونانية انحطاطاً مستمراً تجاه قوة مخيلة الشرقيين وورع الساميين) .

وعند ظهور الإسلام وتقدم العلم والبحث الفكري في الشرق يظهر الفلاسفة المسلمون وفي مقدمتهم الفارابي الذي نقح وأضاف الكثير الى المنطق بعد ارسطو بالاستفادة من العمق الفكري الاسلامي . ولذا لقب بالمعلم الثاني وتبعه ابن سينا في القرن الحادي عشر الميلادي وابن رشد في القرن الثاني عشر الميلادي .

وفي هذا القرن يظهر الفكر الصوفي ومدرسة العرفاء بواسطة الغزالي والسهروردي وهو الفكر الذي يعبر عنه الغزالي بقوله (ان اهل التصوف مالوا الى العلوم الإلهية) ويحتدم الصراع بين فلاسفة الإشراق والمشاء من جهة وبين اقطاب التصوف من جهة اخرى حتى ظهور صدر المتألهين الشيرازي الذي يحاول الجمع بين الاشراق والمشاء في القرن السابع عشر الميلادي .

وفي هذا القرن يطرح ديكارت نظرياته الفلسفية ومنهجية تحقيقه للعلوم في الأوساط الغربية وتوضع المبادىء الاولية للعلوم التجريبية . ويظهر نيوتن في اواخر القرن الثامن عشر الميلادي ويطرح قوانينه الميكانيكية التجريبية .

وثم يبتدأ دور التحول الجذري في العالم الغربي بنجاح الثورة الفرنسية والنهضة الصناعية وتمد الفلسفة الرأسمالية المادية جذورها لتسيطر على العالم كله حتى ظهور هيغل الذي رحب بالثورة الفرنسية وتمرد على النظام الاقطاعي للملكية وكان لفلسفته اثر كبير على تطور الماركسية التي انقذت اهم عناصر الفلسفة الهيغلية ـ وهي الجدل ـ وحولته الى نظرية تقوم على تطور الطبيعة والمجتمع والفكر .

وعند طرح كارل ماركس مؤسس الشيوعية ، لفلسفته المادية الجدلية والمادية التاريخية والاقتصاد السياسي تعاون معه انجلز في صياغة بيان الحزب الشيوعي المنيفست سنة ١٨٤٨ م والذي اعتبر ولادة للاشتراكية الشيوعية في العالم .

وهكذا تعاقبت الآراء الفلسفية والعقائد الإلهية وتتابعت من يوم عرف الإنسان نفسه الى يومنا هذا . ولم تكن الحروب الطاحنة والصراعات الدامية والغزوات المتلاحقة في تاريخ البشرية الا نتاجا لهذه التباينات الفكرية والعقائدية .

وكل هؤلاء العباقرة وعمالقة الفكر وأتباعهم وأنصارهم يدعون أنهم منقذون للبشرية وهم الذين يؤمنون طموح أفراد البشرية في الحفاظ على وجودهم والتمتع ببهجة الحياة وتسخير الطبيعة والكون لصالح هؤلاء الأفراد .

ولكن مع مزيد من الأسف كل منهم ينقض الأخر .

فالخرافات المتجسدة في طلب العافية من الصنم بنحر الشاة أو طلب الخير من الشجر بشد الخيوط بها أو طلب الشفاء من البقر بالتبرك بفضلاته كلها تنقض بالعقل السليم .

والسفسطة المتمثلة بشعر الشاعر :

كل ما في الكون وهم او خيال او نقوش في مرايا او ظلال

فإنها تنقض بالحس والوجدان .

والفلسفة بنسفها كبير فلاسفة المشاء ، ابن سينا بقوله (ان الوقوف على حقائق الأشياء ليس في قدرة البشر ونحن لا نعرف من الأشياء إلا الخواص والأعراض واللوازم ولا نعرف الفصول المقومة لكل واحد منها ، بل نعرف انها أشياء لها خواص وأغراض) وقول كبير فلاسفة الإشراق شهاب الدين السهروردي في حكمة الإشراق (في بيان الوفاء باعطاء الحدود الحقيقة حقوقها صعب جدا لجواز الاخلال بذاتي لم نطلع عليه ، ولكثرة مايقع فيها من الأغاليط الحدية) وصدر المتألهين الشيرازي الجامع للفلسفتين يقول في اسفاره (لهذا وقع الاختلاف بينها) وهذا الاختلاف هو الدليل القاطع الذي يثبت عدم الوصول الى الحقيقة التي هي ثابتة غير متغيرة .

وهذا ماحدث بعينه للفلاسفة الغربيين المتأخرين فكل منهم ناقض عدله وابطل نظرية غيره .

أما المتصوفة والعرفاء الذين اعتقدوا بالعلوم الإلهامية وحدا بهم استدلالهم الى أن حقيقة لابشرط شامل لوحدانيته وهو مقام جلاله ومستوعي لاستعلائه وهو أن كل الأشياء والظواهر فيض عنه ، وتبعا لذلك فإن الهدف الأسمى للحياة هو الاتحاد بالذات الالهية والإيمان بوحدة الوجود . فقال محي الدين العربي (سبحان الذي خلق الأشياء وهو عينها) وقال الحلاج (ليس في جبتي سوى الله وحدة لا شريك الا هو) .

أي ان الحجر والشجر والبقر والبشر كلها ذات الله . وهذا ماينبذه العقل ويرفضه الوجدان .

أما منهجية ديكارت ومن تبعه من اساطين العلوم التجريبية كنيوتن وداروين وفرويد واينشتاين ، هذه المنهجية التي تعد اليوم الركيزة العظمى للتقدم التقني والفني ، فهي أيضاً متزلزلة لا توصل الى القطع واليقين لأنها مرتكزة على الاستقراء التجريبي والديالكتيكية المادية للوصول من الجزئي الى الأصل الكلي . ومعرفة العلل للتحكم في المعلول وتنظيمه . وبمعرفته يمكن وضع القوانين والأنظمة المتعلقة بحياة الانسان وكيفية تسخير الطبيعة لصالح البشر وتنظيم الصلات المادية في الكون .

ولكن اذا كانت معرفة العلة مترتبة على الاستقراء . والاستقراء منه ناقص ومنه تام . ومعرفة العلة التامة لايمكن حصولها الا عن طريق الاستقراء التام . والاستقراء التام يستلزم استيعاب جميع الخواص والأحوال والظروف المحيطة بما يدور حوله الاستقراء .

وهذا الاستيعاب يستلزم بالضرورة العلم التام بكل مافي الوجود والخليقة . وهذا العالم ينحصر انحصاراً مطلقا بذات خالق الموجودات .

اذا ، لايمكن ان يكون هذا الاستقراء والمنهج الديالكتيكي استقراء تاما يبلغ مستوى الحجية القطعية في معرفة العلة ، إلا إذا كان مطابقا لما يقوله الله .

ولهذا السبب نرى أن القوانين المدنية الوضعية وحتى القوانين الهندسية والميكانيكية والكهربائية والطبيعية تتغير وتفقد قيمتها من مدة الى مدة .

أما اراء كارل ماركس وانجلز ولينين الشيوعية حول المادية التاريخية والاقتصاد السياسي فقد نسفت نفسها بنفسها فوفرت علينا بحثها وتحليلها .

واذا كانت نتيجة هذه الصراعات الفكرية العقائدية أن يكون العالم البشري اليوم في شقاء وحيرة وتخبط . يواجه مشاكل ومعضلات جدية وجذرية تهدد وجوده على سطح الارض ، ناهيك عن الراحة النفسية والتمتع الصحيح ببهجة الحياة .

فشعوب الدول النامية وما تسمى بالعالم الثالث تعاني الجهل والفقر والتشرد والحرمان ، وشعوب الدول الراقية تعاني التسيب والفلتان وانفصام عرى العلاقات العائلية والاجتماعية بالاضافة الى تلوث البيئة والأمراض المستعصية والعذاب النفسي . فهي على شفا حفرة هاوية من الممكن ان ينهار صرحه في كل آن .

وقادة الفئة الأولى لا يفكرون في إصلاح أمور بلدانهم ، وقادة الفئة الثانية لا همّ لهم سوى السطوة والسيطرة على بعضهم البعض لذا تتركز جهودهم على سباق التسلح والأعداد لتسخير الفضاء ومحاولة التفوق في أبحاث الحروب الكيماوية والذرية .

فالبشرية اليوم وأكثر من أي يوم مضى في أشد الحاجة إلى مبادىء وأنظمة تنقذها من فناء حتمي يهددها ، أنظمة تؤمن لها حياة سعيدة رغيدة تعطيها الطمأنينة والهناء ، وراحة البال واستقرار الخيال .

وإني لا أريد بهذا العرض العاجل أن أسحب خط البطلان على جميع الأنظمة والمبادىء والعقائد بل أعتقد بما يعتقد به كل مسلم أعتقد بتعاليم القرآن القائل ﴿فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب﴾

ولا أريد أن أطرح الإسلام وتعاليم محمد وعلي عليهما السلام كعقيدة بديلة للأنظمة والمبادىء الأخرى . إنما أريد أن أمد يد الطلب والرجاء بمناسبة عيد الغدير الاغر وباسم (الجامعة العالمية للعلوم الإسلامية) و(المركز العالمي للأبحاث الفنية) و(الجامعة التكنلوجية العالمية) أمد يد الطلب والرجاء إلى الزعماء الدينيين من كل دين ومذهب والفلاسفة والمفكرين والساسة ورجال القانون والعلماء التجريبيين والفنيين والأساتذة الجامعيين والأكاديميين لتأسيس مركز عالمي لأسس المعرفة وأصولها . وبالتعاون مع منظمة الأونيسكو المركز الثقافي العالمي ، لتولي البحث والتحقيق عن سبل المعرفة وأصولها ومبانيها . ليتمكن هذا المركز من وضع نظام فكري عقائدي يؤمن للبشرية غايتها وأمنيتها ، وهي كما ذكرت في مستهل حديثي الحفاظ على وجوده والتمتع ببهجة الحياة . لعلنا نتمكن من إحداث المنعطف التاريخي لحياة الإنسان .

وإني لأهيب بشبكات الأعلام ورجال الصحافة للتعاون معنا في تحقيق هذا الهدف ، فلهم الكلمة المسموعة عند الناس ولهم التأثير المباشر على توجيه الأفكار .

أما الفن الذي يعد المعبر الواقعي عن ثقافة الشعوب بعيداً عن الزيف والتمويه والدليل الصادق على حضارة الأمم وتراثها فإنه يعتبر النموذج الحي للتفكير الإنساني وخلفياته الفكرية ومكنون معتقداته .

فحينما يجف القلم ويتلعثم اللسان وتعجز اللغات عن بيان مقاصد الكاتب والمتكلم ، ولا تتمكن الكلمات من التعبير عما في سريرة الإنسان وباطنه تأتي ريشة الفنان ويأتي أزميل الحرفي ليعبر عن أمور تدرك ولا توصف فتخرج من القلب وتقع في القلب . متحدية تباين اللغات وتفاوت المستويات ، وتعارض القوميات بصورة لا إرادية طبيعية تترشح من مكنون العقيدة الباطنية للفنان .

فهو صوفي يكتسب خبرته من العلوم الألهامية ولكن لا يعتقد بالدليل القائل إن الهدف الأسمى للحياة هو الاتحاد بالذات ليؤمن بوحدة الوجود .

والمعمار فيلسوف يحاول بدراساته وآرائه المنطقية إلزام المجتمع اتباع نهج جديد في الحياة عن طريق تصاميمه المعمارية والانشائية . ولكن لا ينخرط في الاستدلالات الفلسفية ليصبح

أسيراً مُسيراً بواسطة عقله فقط . لذا نرى بكل وضوح وجلاء كيف أن المعتقدات الدينية والجذور الفكرية تنعكس في آثار الفنانين والحرفيين والمعماريين . فلو استعرضنا الآثار الباقية والتراث المتروك لوجدنا أصدق مظاهرها في المباني والمعابد والكنائس والمساجد والمدارس قديماً وحاضراً . ففيها يحاول الفنان الأبداع والسعي في الوصول إلى قمة مهارته وكفائته . فهي نماذج لمكنون التفكير الباطني لمعتنقي المذاهب والأديان والملل والنحل .

وهنا يأتي دور التحليل والتدقيق . فعبدة الأوثان يزينون معابدهم بتماثيل وصور لآلهتهم التي يعتبرونها مظهر القوة والخير والعطاء . فنرى في هذه المعابد تماثيل لأنسان ذي عشرة أيدي أو لموجود نصفه أنسان ونصفه حيوان له خرطوم يُظهر القدرة والقوة .

ونرى في الكنائس والكتدرائيات صور وتماثيل للعذراء والمسيح عليه السلام أو لملائكة ذوي أجنحة في غاية الأبداع والروعة الفنية . كل ذلك لأن المسيحية رغم كونها عقيدة سماوية لكن الاعتقاد بالتثليث واعتبار المسيح ابن الله ، جعلها ذات صلة بالمادية والتجسيم . مع هذا الفارق إن التمثال الذي يصنعه المسيحي هو تمثال إنسان أو تمثال طفل بريء لا يظهر فيه معالم القدرة كما كانت عند تماثيل الوثنيين .

أما المسلم الذي يعتقد بوحدانية الله المتعالي عما يصفون فإنه يعتقد التجرد في أعماله وفنه ، ففي الوقت الذي يريد أن يظهر غاية مهارته وإمكانياته في منشآته الدينية كدليل صادق على تعلقه بعقيدته ودينه يحاول أن يجعل من أثره هذا وسيله لعروج نفس المبتهل ، وسوق فكر الناظر إلى عالم علوي لا متناهي بعيداً عن العوالم الدنيوية .

فالنقوش المعمارية في المساجد والمدارس والحسينيات والأماكن المتبركة أما آيات قرآنية أو أحاديث نبوية أو أشعار دينية أو رسوماً تنقسم إلى ثلاثة أقسام أسليمية وخطائية وهندسية أو كما يعبر عنها بعض الخبراء سماوية ونباتية وهندسية وجميع هذه الرسوم والنقوش ذات طبيعة واحدة تبتدأ من نقطة ثابتة وتتحرك إلى ما لا نهاية . أي أنها تتحرك من المحدود إلى اللا محدود أو من الأنسان إلى الله .

وهذا هو الفرق الجوهري بين الفن الإسلامي والفنون الأخرى فهو فن مجرد تشكيلي نابع من الروح والنفس الأنسانية بعيداً عن التأثيرات المادية فطبيعي من أن يكون مفعوله روحياً ونفسياً يعطي الطمأنينة والارتياح للأنسان .

أما علاقة الفن بالإمام علي عليه السلام فهو واضح وجلي جداً . إذ أن الفنان المعتقد بمذهب من المذهب والمؤمن بمبدأ من المبادىء حينما يحاول إظهار فنه ومهارته نراه بصورة تلقائية ولا إرادية بأعظم شخصية يؤمن بها . فالفنان الهندي تظهر في جميع أعماله مظاهر وصور الكريشنا والبوذي لبوذا والمسيحي للعذراء . فطبيعي أن يظهر في كل أثر من آثار الفنان المسلم

مظاهر لمحمد وعلى عليهما السلام في خطه ، في نقوشه ، في أثاثه وفي المباني والمنشأ التي اشتغل فيها . وأكثر من ذلك نرى المحارب يطلب نقش (لا فتى إلا على ولا سيف إلا ذو الفقار(على سلاحه لأنه يعتبر علياً مظهر الشجاعة ، والمعلم والأستاذ يضع فوق رأسه لوحة (أنا مدينة العلم وعلي بابها) لأنه يعتقد بأن من أراد العلم يجب عليه أن يدخل من باب علي وهكذا الشاعر يترنم بوصف على لأنه لا يجد أكمل منه صفات ومأثر ، وهكذا الحرفي والأداري والعسكري والمدني فكل منهم يجد في علي ضالته ، ومن هذا المنطلق نرى في بعض اللوحات الزيتية ونقوش السيراميك وأعمال النسيج أن الفنان حاول أن ينقش اسم علي في الكلمة وفي الأرضية فلا تكون في اللوحة غير اسم علي عليه السلام وهو يريد أن يقول أن كل شيء من علي وفي علي .

وسوف تلاحظون كيف أن الفنان المسلم حاول أن يظهر من الدمار زينة للحياة ، ففي بعض الأسطوانات المعروضة والتي هي بقايا طلقات المدافع الجبارة حاول الفنان أن يبدلها إلى مزهريات للورود وينقش عليها قول الإمام على (اتق شر من أحسنت إليه) أو يكتب عليها هذا الشعر (لي خمسة أطفي بهم حر الجحيم الحاطمة المصطفى والمرتضى وأبناؤهما والفاطمة) أو الآية الكريمة ﴿يا نار كوني برداً وسلاماً على ابراهيم﴾ .

هكذا أراد الفنان المسلم أن يثبت بعمله هذا أن الدمار والنار يطفيه حب على ويجعله برداً وسلاماً .